قرأت العدد الماضي من "الآداب"

بقلم

جبرا ابراهيم جبرا

كان اول ما قرأت في العدد الماضي القصص الثلاث التي فيه ، ثم قرأت المقالات المختلفة ، وبعد ذلك عرّجت على اخبار النشاط الثقافي في الغرب وفي العالم العربي — وهذا الباب مما تمتاز به « الآداب » فهو كحلقة الوصل بين اتجاهاتنا واتجاهات بقية انحاء العالم — فوجدت ان بين هذه الأبواب أروقة متصلة ، وان التعليق على احدها يرتبط بالتعليق على الاخرى ، وان القضية الوحيدة التي تهمها جميعاً هي قضية الابداع .

وقد كان مقال الدكتور نبيه فارس « العرب ودراسة تاريخهم » ، خير ما في العدد ، لا لتركيزه ومنطقيته ووضوحه فحسب ، بل ايضاً لأن الدكتور فارس وضع يده فيه على الضعف الأساسي في الكتابة التاريخية عندنا ، فابرز الضعف الأساسي في الكتابة الابداعية كذلك ، حين قال إن أكثر كتبنا في التاريخ العربي لا يمكن ان تعتبر « مؤلفات علمية » في التاريخ ، بل الأجدر اعتبارها خطباً حماسية » . والكثير من قصصنا من هذا الضرب الخطابي الذي تسمع فيه — رغم انفك — جعجعة المؤلف ولا ترى شخصية بطله . « التفسير والتحليل والتعليل » ، هذا ما يراه الدكتور ضرورياً في دراسة التاريخ العربي ، وكذلك يتحتم درس التاريخ الاسلامي « على انه جزء غير منفصل من تاريخ البشرية . » ألا ينطبق ذلك على دراساتنا الأدبية ايضاً ؟

ولنأخذ القصص الثلاث .

إن قصة الاستاذ رئيف الخوري « الغاية والطريق » ، تتعثر وتكبو من بدئها حتى النهاية لكثرة ما فيها من الوعظ (والخطابة ؟) الذي لاحاجة له ، لأن الحديث في هذا الشكل (وفي قصة قصيرة !) عن الاشتراكية والسكر والبطالة والبترول الخ ، أتفه من ان يدخل في تركيب قصة نبغي منها الأصالة والتماسك — وقارىء أية جريدة في أي مقهى يحدّثك بمثله . والقصة في الواقع تنتهي في وسطها عندما يطرد فائق من عمله وتتضح السخرية المفزعة في قول « مصلح البشرية » . أما البقية فإضافة مترهلة ، ولا تنمو نمواً عضوياً عما سبقها من حوادث ، ولا تكتشف امراً جديداً . وهذه الشخصية الجديدة — شخصية مسعود — التي تظهر فجأة في أواخر القصة : أليست مقحمة رغم انف البطل والقارىء معاً ؟ من من القراء استطاع ان ينهي قراءة هذه القصة عن متعة ؟ يجب ان تتجاوب الشخصية والحادثة في القصة ، وإلا تصدعت وتساقطت قطعاً لن يربط بينها حتى ما للمؤلف من حسن نية ورغبة في « التوجيه » .

وقصة الاستاذ انعام الجندي « سأربح الجائزة » تقاسي نفس ما تقاسيه القصة السابقة من حيث الخطابة . لست ادري ماذا يكون حكم الناقد على هذه القصة لولا موضوع «اللاجىء» . والمؤلف بدلاً من ان « يبني » قصته على هذا الموضوع ، نراه « يستغلّه » ، لما ينطوي عليه من عواطف يسهل استغلالها ، دون ان يركّب على هذه العواطف شيئاً يجعل لها اثراً في النفس . ليس تعداد الفظائع إلا من قبيل التقرير الصحفي ، وكان الأجدى لو ركّز المؤلف همّه في احداها وتغلغل في طواياها ليخلق شخصية او حادثة معينة .

أما قصة السيدة الفت الادلبي «ليتني وليته» ، فقد وُفّقت فيها المؤلفة الى حدّ بعيد ، إذ نجحت في الكشف عن زاوية من زوايا الماضي في حياة رجل وزوجته ، فصوّرت الشخصيتين عن طريق ما يقولان ويفكّران دون ان تفرض عليهما تعليقاتها فرضاً صريحاً ، واستطاعت ، رغم قصر القصة ، ان تُبرز ما في الزوج من ضعف وما في الزوجة من قوة مع تهكم ممتع .

وافتتاحية العدد : « الابداع الذي نحتاج اليه » بقلم الاستاذ عبد الله عبد الدائم دفاع رائع عن ضرورة ترجمة « الكيانات » الفكرية كاملة ، عوضاً عن اجتزائها ومسخها كما هو شائع . ولكن اخشى ان الاستاذ يطنب في التفاصيل إذ يحاول اقناع القارىء بوجهة نظره ، فيأتي بمبرر غريب للترجمات الكاملة مثلاً بقوله : إن عرض ما لكاتب غربي من اللآليء يجب ان يقرن بعرض نقائصه الكثيرة ايضاً « التي لا ينجو منها مفكر » ، فيعصمنا ذلك عن « شعورنا بالانسحاق امام فكر الغرب » ! ثم انني لا ارى كيف يتمكن من يترجم افكار مفكر غربي

بكاملها مع فهمها فهماً عميقاً ، « من العلوّ فوقها والابداع ابداعاً يتجاوزها ». فكأنما يوحي الينا الاستاذ عبد الدائم بأن المترجم يغدو مبدعاً يفوق الكاتب الذي يترجمه! إننا في حاجة الى المترجم الذي يحيط بدقائق الموضوع الذي ينقـــله الى لغتنا ، فيهيء للقارىء فهماً قد يتأتى منه للقارىء إبداع جديد، ولعلنا حينئذ ننجو من هذه السطحية البغيضة في تلقي فكر الغرب .

لن اعلّق على مقال الاستاذ ماسينيون عن «مذهب الحلاج» مع متعتي الشديدة في مطالعته ، لأنني لا اعرف عن الصوفية ما يؤهلني لذلك . غير انني من المعجبين بدقة الاستاذ الكبير وتأويلاته البعيدة الأعماق ، ولعلها أقرب ما تكون الى ما ينشده الدكتور فارس من دراسة التاريخ الاسلامي على انه جزء غير منفصل من تاريخ البشرية .

أما مقال الاستاذ علي الشعلان «بين التجريد والسريالية » ، فأشبه بملاحظات لم تنتظم نهائياً لكثرة تقطعها ولكن الكاتب ولا ريب جمعها بوافر من الحماس والاستطلاع . وارجو ان يتوسع يوماً في بحثه عن التجريد والسريالية ، كلاهما على حدة ، فيظهر خطورتهما في تحول الذوق في القرن العشرين .

ومن أهم ما في العدد حديث الاساتذة المصريين عن «الزعامة الأدبية بين بيروت والقاهرة » في باب النشاط الثقافي. إن الفرق بين بيروت والقاهرة من حيث الانتاج الأدبي هو أن انتاج القاهرة يكاد يكون كله مصرياً ، ولكنه يقرأ في بقية الاقطار العربية ، في حين أن ما ينشر في بيروت يصوّر الفوران الفكري المعاصر لا في لبنان فحسب ، بل في العراق وسوريا وفلسطين والاردن ايضاً . ومن المؤسف ان ما يطبع في هذه البلاد لا يلقى اقبالاً في الديار المصرية ، لا لأنه دون الانتاج المصري جودة ، بل لأن الجمهور المصري تعوّد لوناً من الاقليمية ، وأعرض عن الأدباء الذين لم تطبع اسماءهم دور النشر في القاهرة. وفي اعتقادي ان الحركة الادبية التي تمثلها كتب بيروت ومجلاتها (وبيروت في ذلك أخت بغداد) انشط منها في مصر ، وإن لم تتح لهـــا وسائل النشر المتوفرة في مصر . ان القاهرة مركز الدراسات العربية الكلاسيكية ، ولكن بيروت الآن منبع للتجديد في الاسلوب والفكر ، والمواهب التي تكشف عنها المجلات والكتب الصادرة في بيروت وبغداد ستغير وجه الأدب العربي في العشر السنوات القادمة . ولعل الدكتور طه حسين انتبه الى ذلك فقال قولته عن انتقال « الزعامة » من القاهرة الى بيروت . لقد فاق التقدمُ التكنيكي في الصحافة المصرية التقدمَ الفكريّ هناك ، فجعل تقليد المجلات الامريكية امراً يسيراً ، ولكنه غفل عن المواهب الجديدة التي لن يستطيع التقدم الآلي بدونها ان يكون ذا اثر خلاق في حياة الناس . وليس ادلّ على ذلك من عشرات الترجمات المبتورة الشوهاء لامهات كتب الغرب تصدرها دور النشر القاهرية وتفسد بها ذوق القراء .

أما مقال الموسيقار الروسي آرام خاتشادوريان ، فهو مقال خطير ، وفيه عبرة للذين يختطون القواعد السياسية للابداع الفني. يقول خاتشادُوريان : « حسبنا ! لا وصاية بعد ! وليتحمل كل ملحن مسؤولياته . » ويجدر بنا الا ننسى مثل تلك العبارة . ليس هناك ما يرهق المبدع اكثر من نظريات النقاد الذين تهمهم السياسة اكثر من الفن ، ويتزلفون الى الجماهير بفرض ارادة دماغوغية على المبدعين . ما اكثر من ينصحونك ويرشدونك ويمدونك بالمقالات التي تنص عليك كيف تبدع وماذا تلتزم واي جو تتوخى واي مبدأ تعتنق — الى ان تغدو قضية الابداع قضية حزبية مؤقتة الأهداف ، عوضاً عن قضية فكرية هي قضية النفس البشرية. وما اقل من يبدعون ورائدهم الاصالة والرؤية والاسلوب

بقي الحديث عن الشعر في العدد الماضي. كنت اود ان اعالج كل قصيدة على حدة ، ولكني اكتفي بالاشارة الى القصائد التي وجدت فيها تلك المتعة التي يستشعرها من يعثر على لقيا جديدة . فقصيدة الآنسة نازك الملائكة « الشخص الثاني » لها طرافتها في موضوعها السيكولوجي . ولكن الآنسة تفسد القصيدة أحياناً بالمجرّدات ، كما في البيت الاول (وفي الشعر : المجرّد ميت والمحسوس حي) ، او بتراكيب وفِكَر نثرية ، كما في قولها :

« وسيرمقني في خبث مختبئاً حتى خلف الكلمات »

(غفر الله لها هـــذه الخاءات المتعاقبة !) ولكن البيتين الاخيرين جميلان جداً .

وقصيدة « العودة » للآنسة فدوى طوقان ، افضل بكثير من جل قصائدها الاخرى ، ويروق لي فيها فيض ابياتها الواحد في ما يليه . ولكنها تسف احياناً في مثل هذا البيت : «ونسيت في سكر اللقاء عذاب عام » . ما أشيع السكر صورةً للفرح العميق في الشعر المعاصر ! أما ملّ الشعراء هذه «الاكذوبة» ؟

وقصيدتا « وحدي مع المنفى » للاستاذ صالح جواد الطعمة و « هجم التتار » للاستاذ صلاح الدين عبـــد الصبور ، كلتاهما وُفقت في خلق الشعور بالمأساة ، بوفرة التفاصيل المحسوسة التي توحي بأكثر مما تنصّ عليه .

بغداد — **جبرا ابراهيم جبرا**